مر على شعر . والكتاب بعد هذا وذاك فصول ممتعة بل ساحرة يكلف بقراءتها كل من حاولها ، فعرف ما تبعث فى نفس القارئ من سرور وإعجاب وما تتضمن من فوائد للعلم والأدب والتاريخ

وقد ترجمت هذه السيرة إلى لغات كثيرة . ترجمت إلى الفارسية بأمر حفيدة جلال الدين الأكبر (٩٦٣ — ١١٠٤) ثم ترجمت فى العصور الأخيرة إلى لغات أوربية وطبعت أول ترجمة إنجليزية لها قبل مائة سنة ، ولا تزال موضع عناية الباحثين فى تاريخ الشرق الإسلامى وآدابه .

ولعل معهد الدراسات الشرقية فى كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول الذى افتتح هذا العام يجعل ترجمتها إلى العربية باكورة أعماله إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

أعرابى فى سينما ... (*)

للأستاذ على الطنطاوى

وطالت غيبة « صُلَّبى »(1) ، حتى لقد استيأست منه ، فنسيته وطرحت همه عن عاتقى ، وعدت أدور مع الحياة كما تدور الساقية ، مغمض العينين ، أطوف فى مفحص قطاة ، فلا غاية أبلغ ولا راحة أجد ، أغدو إلى كدّ العقل وعذاب النفْس ، وجفاف الريق وانقطاع النفَس ، وأروح ، وما بقى فىّ بقية لعمل ، ولا طاقة على كتابة ، فألقى بنفسى على كرسىّ أو سرير ، أنتظر عذاب اليوم الجديد ...

وإنى لغادٍ إلى المدرسة ذات يوم ، وإذا أنا بأعرابى فى شملته يشير إلىّ ... وهو يسير بين تلك المواخير : تريانون وليـدو ولوازيس ، حائراً يتلفّت ... فقلت : لعلّه ضالٌّ أحبّ أن يستهدينى ووقفت له ، فلما دنا وتبينته ، لم أملك من الفرح نفسى ... فصحت فى السوق وسط الناس . ومالى لا أصيح وقد وجدت « صلبى » بعد طول الغياب ... وحييته وحيانى تحية ذاكر للصحبة ، حافظ للود ، وطفق يحدثنى حديثه ...

قال :

أتذكر يا شيخ ما ابتلانى به الله من أمر الحمام ؟ لقد وقعت فى داهية أدهى ... ولقد والله كرهت الحضر ، وعفت المدن ، وأصبحت أخشى فيها على نفسى ، فما أدرى ماذا سيكون من أمرى بعد الذى كان ؟ ...

... قدمت الشام قدمة أخرى ، فكان أول ما صنعت أن قصدت صاحبى ، وكنت قد عرفت داره فى (الميدان) ... فأكرمنى وأحسن استقبالى ، أحسن الله إليه ، وذبح لى خروفاً ، ولم يكتف بذلك من إكرامى بل أزمع أن يأخذنى إلى سنمة ... قلت : ولكنى لا أعرف سنمة هذا ، ولا أدرى من هو ، فكيف تأخذنى إليه ؟ قال : لا بد من ذلك . فاستحييت منه وكرهت أن أخالفه بعد الذى قد صنع فى إكرامى ... وقلت فى نفسى : لولا أن سنمة هذا صديق له ، عزيز عليه ، ما سار بى إليه . ولقد قال المشايخ من قبيلتنا : صديق صديقك صديقك ... فرضيت وقلت له : على اسم الله !

* * *

ولكن الرجل لم يسر بل أدركه لؤم الحضر فصاح بابنه أن هات الجرائد حتى نرى الرواية ، فتوجست خيفة الشر ، وقلت : إن الرجل قد جنّ ، وإلا فما بال الجرائد ؟ وهل تراه يضربنى بها ؟ إذن والله لأريته عز الرجال ولضربته ضرباً يبلغ مستقر اللؤم فى نفسه ... وخشيت أن أتريّث أو أتلوّم فأخيب وأفشل ، وذكرت حكمة مُحَمَّد بن عَلْوى : « الغلبة لمن بدأ » فشد ذلك من عزمى وصرخت : « ياهُو ... » ووثبت وثبة أطبقت بها على عنقه ، وقلت : سترى لمن الجرائد والسياط ، ألابن المدينة الخوار الفرار ، أم لابن البر الحر ؟

فارتاع وأبيك وجعل يصيح من جبنه : أدركونى ، أنقذونى ! النجدة ، العون ، يا فلان (لابنه) أقبل ... ويلك ياصُلَّبى ، يا مجنون ، كف عنى ، ويلك ماذا اعتراك ؟

فأخذتنى به رأفة فكففت عنه ، وقعدت محاذراً أرقب أهل المنزل ، وقد اجتمعوا ينظرون إلىّ بعيون من يهم بفرى جلدى . فقال لى : ما أردت بهذا ويلك ؟ وبم أسأت إليك حتى استحققت منك هذا الصنيع ؟ قلت : بالجرائد ... أمثلى يضرب بالجرائد ، لا أم لك ؟

فضحك والله وجعل يكركر حتى لقد شبهت بطنه بقربة جوفاء أدخلتها الماء . وضحك كل من كان حاضراً من أهله وبنيه ضحكا

(*) من كتاب « صور وخواطر » وسيصدر قريباً

(1) أنظر العدد ١٣٨ والعدد ٣٣٠ من الرسالة

ما شككت معه أن القوم قد أصابهم طائف من الجن ، فقلت : قبحكم الله من قوم، وقبحني إذ أنزل بمثلكم. وهممت بالانصراف. فصاح بي وعزم عليّ إلا ما رجعت ، فبررت بيمينه وقفلت راجعاً فقال لي :

وأنت حسبت الجرائد مما يضرب به ؟ ألم تبصر جريدة قط ؟ قلت : ويحك فكيف إذن ؟ أنا من بلاد النخيل ، تبوك حاضرتي

قال : وتحسبها جرائد نخيل ؟ قلت : إذن فجرائد ماذا ؟ قال : خذ ؛ هذه هي الجرائد

وأتى إلى صحفاً سوداً بها من دقيق الكلام مثل دبيب النمل ، فعجبت منها وسألته أن يقرأ عليّ مما فيها فأستفيد علماً ينفعني في آخرتي ، فإن الرجل لا يزال عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. ولقد سمعت أنه جاء في الأثر « كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك »

فضحك وقال : وهل تظنها كتب علم ؟ قلت : فماذا فيها مما ينفع الناس ؟ قال فيها أخبار البشر — من سافر منهم أو حضر — أو تزوج أو ولد له ، فما يصنع أحد من شيء إلا دوّن فيها ، ولا ينبغ من عالم أو أديب أو بقدم مغنٍّ أو تجيء قينة أو تأمر الحكومة أو تنهى إلا ذكر ذلك فيها ، حتى إن فيها صفة الخمر والإعلان عن الميسر ، وأخبار دور الدعارة ، والدعوة إلى الروايات الخليعة ...

فلما سمعت ذلك طار عقلي وأخذت هذه الجرائد فمزقتها شرّ ممزّق ، وعلمت أن الله مهلك هذه القرية ، وعزمت على مفارقتها ونويت ألا أعود إليها بعد الذي سمعت من خبر جرائدها ... وما ظننت أن مثل ذلك يكون ، ولم يجترىء صاحبي بما أعلمني من علمها بل عمد إلى صحف أخرى كانت في أيدي صبيانه وبناته فيها صور قوم عراة تبدو عوراتهم ، ونساء ما يسترهن من شيء إلا شيئاً ليس بساتر ، فأرانيها ، فسقط والله من عيني وقلت ، هذا القرآن الذي لا تأخذه على أهله غيرة ، وما كنت أحسب أن رجلاً يؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ذلك ...

* * *

ولست مطيلاً عليك الحديث ...

... وذهبنا نزور سنمة فسرنا حتى بلغنا قصراً عظيماً على بابه خلق كثير ، وله دهليز تسطع فيه الأضواء ، فقلت ، هذا قصر أمير البلد ، هذا الذي يدعونه رئيس الجماهير ... وألهاني ما رأيت وشغلني ففقدت صاحبي وسط الزحمة ... ولكني لم أبال ، وأقبلت أصعد الدرج فتمنعني أغلمة بثياب ضيقة حمر ما رأيت مثلها ، وعلى رؤوسهم كُمٌّ لها رواق من فوق عيونهم كالذي يوضع على عيني بغل العجلة ... وأنخاذهم مكشوفة فعل أهل الفسوق والتهتك ، فهممت أن آخذ اثنين منهم فأكركبهم على الدرج فأزحلق معَدهم عن مواضعها ، ثم قلت ، ترفق يا صُلَبي لا تجنّ فما أنت في البادية ، أنت في قصر الأمير وهؤلاء مماليكه وإنك إن مسستهم لم تجد أمامك إلا ضرب العنق ... ووضعت يدي على عنق أنحسها فعلمت أني لا أزال أحتاج إليها

ولو أنني في السوق أبتاع مثلها وجدك ما باليت أن أتقدما

وسألت الغلمان الكاشفي الأنخاذ ماذا يريدون مني أن أصنع ، فأشاروا إلى كوّة ازدحم عليها الناس ، فعلمت أن الدخول من هناك ، وأقبلت أزاحم وأدافع وهم يردونني حتى بلغت الكوة . فإذا هي غرفة ضيقة كأنها القفص وإذا فيها رجل محبوس والناس يتصدقون عليه ، فقلت في نفسي : هذا رجل ضرب مماليك الأمير فحبسه هنا لتضرب عنقه في غداة الغد ، وحمدت الله على السلامة ، وتوجهت بوجهي إلى رجل توسمته أسأله: متى تضرب عنق السجين ؟ فنظر إليّ ولم يجب ، ثم ولاّني قفاه وانصرف ، فعلمت أن الأمير يمنع الناس من الكلام في هذا ، ولولا ذلك لأجابني . ودنوت من كوّة السجين فأعطيته قروشاً كانت معي وقلت له : هذه لأولادك من بعدك ، لهم الله فلا تحزن ، فلم يقبضها حتى عدّها فرآها كثيرة فرد إليّ بعضها وقبل بعضاً ، فلم ألحف عليه وأخذتها منه وأخذت معها ورقة صفراء أعطانيها لم أدر ما هي ، ولكني لم أشأ كسر قلبه بردّها ، ووضعت ذلك كله في كمّي وعمدت إلى الكوة لأدخل منها فوجدتها عالية ، فوثبت فأصبت بقدمي وجه رجل ممن كان هناك ، فما باليته وقلت سأعتذر إليه ، وقد رأيت أهل المدن يؤذون إيذاء العدو ، ثم يعتذرون اعتذار الصديق . وأدخلت رأسي في الكوة ، فصاح السجين صياحاً أرعبني والله ، وشبهته بصراخ كلب ديس على ذنبه ، وأجلب الناس ، وطفقوا يشدون برجلي وثيابي ، وأنا أرفس بقدمي رفساً لا أبالي موقعه من أجساد الناس ، والسجين اللئيم الذي أحسنت إليه يدفع برأسي ويشد بشعري ، ولم يكن عضو من أعضائي إلا وهو مشغول ،

فيداي أتمسك بهما ، ورجلاي أذود بهما عن نفسي ، ولم أجد ما أدفع به أذاه عني إلا أن بصقت في وجهه ، فأقبل يضربني فمضضت يده ، ثم دنوت من وجهه فمضضت أنفه ... وكان أنف ذليل لا يزال خبث طعمه على لساني ...

... ثم أخرجوني قسراً وجبراً – وجاء مماليك السلطان فحجزوا بيني وبينهم – وأخذوا الورقة الصفراء ، وأدخلوني من باب كان هناك إلى بهو واسع صح معه ما كنت قدرت من أن سنمة هذا سلطان البلد ، ورأيت الناس قد صفوا كراسيهم كصف الصلاة ، وإذا بعضهم يولي بعضاً دبره ، فقلت : ما ألأم أهل المدن ، والله ما كنت مولياً مسلماً ظهري إلا في الصلاة . وعمدت إلى الكرسي لأديره فإذا هو مثبت بمسامير من حديد ، فتركته واستدرت أنا ، فجلست على قفاه ، وجعلوا يضحكون مني ، فما ألقي لهم بالاً ، حتى جاءت امرأة ، فجلست قبالتي ، فقلت : يا أمة الله استتري . فأقبلوا يزبرونني ، وإذا هي فيما قالوا « شاب » وليس امرأة ، فجعلت أعجب . . .

ولبثت أنتظر خروج السلطان فإذا بالمماليك يديرونني فيجلسونني من حيث يجلس الناس ، فلم أملك إلا الطاعة ، وقعدت أنتظر فلم أنشب أن جاء مملوك آخر ، فقدم إليّ صفحة من خشب قد صف عليها فراني وشطائر[1] وقال : تريد ؟ قلت : أريد والله . . . وهل يأبى الكرامة إلا اللئيم ؟ وأقبلت آكل فأجد طعاماً هشاً تحت الأسنان ، حلواً في الحلق ، خفيفاً على البطن ، فقلت : هـذه هي البقلاوة التي وصفوها لنا ، وجعلت آكل فلا أشبع ، وهو يقدم إليّ متعجباً حتى استنفدت ما كان معه . فمسحت شفتي بيدي وقلت : الحمد لله ، جزاك الله خيراً

فظل واقفاً ولم يمض ، فقلت : الحمد لله ، لقد شبعت . قال : يدك على الفلوس ؟ قلت : ويحك ماذا تريد ؟ قال : أكلت ثلاثين قطعة كل قطعة منها بسبعة قروش فهذه مائتان وعشرة . . .

قلت : قبحك الله من عبد لئيم ! تأخذ من ضيوف السلطان ثمن القرى ؟

وكان ما أكلت قد شدّ صُلْبي فوثبت إليه ووثب إليّ ، وقام الناس ، وزلزل البهو بأهله ، وكادوا والله يطردونني لولا أن ظهر صاحبي فانفرد بالمملوك فأرضاه عني ، وجاء فقعد مني

* * *

وإنا لكذلك يا شيخ ، وإذا بالأنوار تنطفئ ، وإذا بالخيل تهجم علينا مسرعة حتى كادت والله تخالطنا . فقلت : لك الويل ياصُلْبي ، ثكلتك أمك ، إنه الغزو فما تمودك ؟ وقفزت قفزاتي في البادية ، وصرخت وهجمت أدوس على أجساد الناس وهم يضجّون ويصخبون ، فلما كدت أبلغ الخيل اشتعلت الأنوار وفرّ العدوّ من خوف بطشي هارباً ، وجاء عبيد السلطان ليخرجوني فردهم عني صاحبي وكلمهم ...

فقلت : هذا والله العجز والذل ، فقبح الله من يقيم عليهما ترون العدو قد خالطكم وتلبثون قعوداً ؟ ما أكرمكم إليّ يا أهل المدن ، ما ظننت والله إلا أنكم ستحملون إليّ صلة السلطان على أن رددت عدوّكم وهزمته ...

فضحك اللئام ، وجعل صاحبي يحذرني العودة إلى مثلها ؛ ولم ألبث حتى أطفئت الأنوار كرّة أخرى ؛ ففزعت ونظرت فما أحسست إلا امرأة قد قبض عليها رجل خبيث يحاول أن ينال منها على مرأى منا ومسمع ؛ وهي تستغيث وأنا أسمع صياحها ولا من مغيث ؛ فثارت الحميـة في رأسي وسللت الخنجر وأقبلت أريده ، فاختفى والله حتى كأن لم يكن هنا لك من أحد . وعادت الأضواء ، ورجع الصخب ؛ فقلت : والله ما أقيم ، وجعلت أصيح أخرجوني ويلكم ... حتى أخرجوني ...

* * *

قال صُلْبي : فخرجت وقد علمت أن جرائدكم يا أهل المدن تنشر الفجور وتهتك ستر الله عن الناس وتفضحهم ، وأن شبابكم بنات ، وأن أمراءكم سحرة يسحرون أعين الناس حتى يروهم ما لا يُرى ... ثم إنكم لا تغارون على أعراضكم ، ولا تبالون كشف عورات أبنائكم وبناتكم . لا والله ما أحبكم ...

وذهب مولياً عني مسرعاً يمشي بين تلك المواخير القذرة : تريانون وليدو وأولمبيا ... ... تلقاء سوق الحميدية والأموي حيث المدينة الطاهرة الفاضلة ... حيث دمشق التي سمّاها شوقي « ظئر الإسلام » !

علي الطنطاوي

(ثانوية – دمشق)

(١) الفرنية الـكاتو وجمعها فراني . والشطيرة والشطائر الساندوتش